تاريخ الجزائر القديم من خلال الكتابات الكولونيالية – نقد وتقييم –

أ/ بعيطيش عبد الحميد

قسم التاريخ والآثار – جامعة باتنة1

****

ملخص البحث

إن التأليف التاريخي عن الجزائر قبل الاستعمار الفرنسي منسوخ على منوال التأليف العربي الإسلامي والذي يأخذ الوقائع بمعنى خاص ويلجأ إلى شواهد من نوع معين مكتوبة أو غير مكتوبة، وبعد احتلال الجزائر سنة 1830م انكب الفرنسيون على كتابة تاريخ مستعمرتهم حاولوا من خلاله تحقيق بعض الوقائع، لكنهم قبل كل شيء درسوه دراسة تحليلية للكشف عن الذهنية الجزائرية.

يمكن الجزم هنا أن تاريخ الجزائر منذ بداية الاستعمار الفرنسي احتكرته الأقلام الاستعمارية الفرنسية إذ نجد أجيالا من المؤرخين محترفين وهواة قاموا يفتشون في تاريخ الجزائر، والظاهر أن جميع تحليلاتهم توخّت هدفا واحداً تمثل في تبرير وجود النظام الاستعماري وعدم جدوى أي عمل لتغيير الأوضاع القائمة، فالتاريخ بالنسبة للاستعمار مرتبط بضمان السلطة والهيمنة على المجتمع الجزائري، وهذه المنطلقات هي التي حددت أهداف واتجاهات هذا النوع من الدراسات التاريخية التي نصفها بالاستعمارية التي كانت ترمي إلى إضعاف الوعي القومي بالماضي وإبعاد الناشئة عن الاعتزاز بأحداثه والتأثر بمآثره والالتزام بقضاياه.

تمهيـد

تشكل القراءة التاريخية لمجتمع ما المدخل الموضوعي لوعي الذات وتأكيد الوجود، بل الحضور الدائم في حركة الحياة وزخمها، وبالتالي إدراك أهمية التاريخ " كقيمة" إنسانية فعالة لتحصين الذاكرة الفردية والجماعية من التلف، وباقي الأضرار التي قد تعطب وظيفة الاستذكار الإنساني للشواهد والرموز التاريخية؛ كعناوين ومراجع يستوجب حضورها في مسيرتنا الآنية والمستقبلية.

وتمثل المصادر المادة الأساسية لكتابة أي تاريخ، فالجزائر التي شهدت فترة احتلال أجنبي متمثل في الاستعمار تجد نفسها اليوم مطالبة بالحفاظ على ذاكرتها المعاصرة، ولن يتسنى لها ذلك إلا بضرورة البحث والعمل على مختلف المصادر المكتوبة والشفوية، وبما أن ذاكرتنا المكتوبة في معظمها قد كتبتها الأقلام الفرنسية والأوروبية بشكل عام بحكم تأثير الإدارة الاستعمارية في تلك الحقبة فهذا من شأنه أن يرفع من التحديات التي سيواجهها الباحث الجزائري في التعامل مع هذه الكتابات التي تظل كتابات موجهة في معظمها وتخدم تيار معين، وهو المدرسة التاريخية الكولونيالية.

إن المؤرخين الاستعماريين الفرنسيين انطلقوا في كتابتهم لتاريخ الجزائر من معطيات ثلاثة هي: كونهم تغلبوا على الجزائريين بالقوة، وكونهم شعباً متحضراً يحكم شعباً متخلفاً، وكونهم مسيحيين قبضوا على زمام شعب مسلم، ومن الناحية الفكرية فإن قراءة تاريخ الجزائر إبان فترة الاحتلال الفرنسي والوقوف عند محطاته الكبرى – على الأقل– يجسد ويعكس "الوعي التاريخي" كقيمة وحس وموقف.

إشكالية البحث:

إن مهمة الباحث الأولى هي البحث عن المصادر التاريخية والأثرية، ومادام هناك تاريخ ومؤرخون فالبحث عن مختلف المصادر نشاط متواصل وفهم الوقائع فهما جيدا، يدرك كل جيل أحداث الماضي على ضوء المعطيات التاريخية والأثرية المتوفرة؛ إن إعادة التأويل عملية تلقائية تتطلب فقط قدرا من النباهة ومن الوعي بالملابسات الخارجية، ولذلك يحتاج كل باحث ودارس للتاريخ إلى الحذر الشديد وإلى الإحاطة بالمعارف التي لا يتسرب إليها الشك، ورغم ذلك فإن النتائج بصفة عامة لا تتجاوز الحقائق التقريبية والفرضيات، وبما أنه لا يمكن استعمال طريقة أحسن منها فإنها إذا استعملت بمهارة تعطي نتائج مدهشة في بعض الأحيان، فالحقبة التاريخية فترة زمانية ليست فارغة، وإنما هي وحدة نظرية مستنبطة بعد دراسة الشواهد بواسطة جميع التقنيات المستحدثة، الحقبة التنظيمية نفترض فيها قانونا ذاتيا نحاول الكشف عنه.

إن الانطلاقة النسبية للدراسات التاريخية في الجزائر التي تركز اهتمامها أساسا بالموضوعات التي تتعلق بالتاريخ الوطني تحمل تأثيرات مدرسة التاريخ الاستعماري الفرنسية، ويتعلق الأمر بعنصرين أساسيين، الأول الباحث في الجامعات الجزائرية ومدى ذاتيته وهو يتعامل مع البحث، والثاني هو الموضوع المبحوث وطبيعته، وتطرح هذه الإشكالية جدلية الباحث والمؤرخ الفرنسي والباحث المؤرخ الجزائري في تناولهما لتاريخ الجزائر، ومن المعلوم أن الأبحاث والدراسات التاريخية في الجزائر مازالت دون المستوى المطلوب مقارنة مع البلدان المتقدمة بسبب بعض المشاكل والعراقيل الذاتية والموضوعية، وتأتي هذه الدراسة بهدف تشخيص تلك الصعوبات والعراقيل التي مازالت تعيق طريق الباحث الجامعي في الجزائر مع محاولة رسم رؤية مستقبلية للحلول التي يمكن الأخذ بها

للنهوض بمستوى البحث العلمي في الجزائر وتطويره؛ فهل يمكن للباحث الجزائري المختص في التاريخ القديم أن يطرح أسئلة على جزائر القرنين الماضيين إيمانا منه انه سيعثر يوما على ما يحتاج إليه من وثائق ملائمة ؟ سيعرف الباحث المكون على النمط المعاصر أن هناك علاقة موضوعية بين المصدر المادي والوثيقة المتوافرة والإشكالية المقترحة والتنظيمية المدروسة لا ينقل سؤال المؤرخ آليا من فترة إلى أخرى، أو من مجتمع إلى آخر لابد من تخصيص السؤال وفي هذا التخصيص تكمن حقيقة صناعة التاريخ وهذا ما سنتطرق إليه في هذا البحث.

أهمية البحث في التاريخ القديم:

الشائع بين الناس أننا نقرأ التاريخ من أجل الاستفادة من عظاته ودروسه، وحتى نتمكن من مقارنة أحوالنا بأحوال من سبقنا؛ فنزداد بصيرة وخبرة بما يجب أن نفعله، وبما يجب أن نتركه، وهذا المشهور لا شك في صحته، وإن كان من يستفيد من عبر التاريخ دائما قلة؛ لكن هناك لفهم التاريخ ووعي معطياته فوائد أخرى مهمة في مسائل التربية والإبداع، التجديد واستشراف المستقبل والتعمق في فهم العلوم. الأمم الحية تستخدم التاريخ أداة للتوجيه والتربية؛ إذ تتخذ من إنجازات الآباء والأجداد، ومن سير العظماء – محفزات على السمو والعطاء والاستقامة، خصوصا – إذا سلم من المبالغة والتهويل والقراءة المنحازة – يعد شيئا مفيدا وجيدا.

إن الجانب المقموع من المعرفة (المعرفة المغيبة)، لا بد من تنشيطه فهي تمثل راسباً تاريخياً يمكن إعادة إحيائه وتنشيطه، وبالتالي فالنظرية المعرفية في تناولها للعلوم في سياق ترابط المعرفي بالمعيش والعلمي بالثقافي، والفكر بالمجتمع، الشيء الذي يعيد للعلوم تاريخيتها ودورها الثقافي، فيحرر العلوم من" التلفيق الإمبريالي لها"، وينصف

الشعوب المهمشة ومعارفها، ما يوفر الفرصة للثقافة الإنسانية لإعادة رسم موقعها وإعادة تحديد بنيتها ودورها، لتصبح الحاضن لعلاقة إيجابية، ليس بين الأفراد أو بين الجماعات الإنسانية فحسب، بل بينهم وبين محيطهم أيضاً، ثقافة تعيد صياغة صلة المعرفة بالعدالة، عدالة إنصاف الشعوب والأمم المغلوبة وإعادة الاعتبار لإنجازاتها المعرفية ودورها في الثقافة الكونية من جهة، وحقها في المشاركة أيضاً في إنتاج هذه الثقافة من جهة أخرى.

إن التاريخ يدرس في مدارسنا وجامعاتنا على أنه سلسلة أحداث التاريخ عبر سرد متماسك، يربط المعاصرين بأسلافهم، ويسلط الضوء – في أكثر الأحوال– على سلسلة التطورات الإيجابية والسلبية التي صنعت الفرق بين مرحلة ومرحلة، وبين جيل وجيل. ولكن يتطلب منا أن ندرس مع التاريخ فلسفته ودلالته، فالتاريخ حين يدرس بهذه الطريقة، حتما يحسن من مستوى النظر والبصيرة لدى المتعلمين، ويمكنهم من امتلاك الأدوات المعرفية والمنهجية الصحيحة التي ينقدون بها الواقع الذي يعيشون فيه.

إشكالية صناعة التاريخ:

يمكن اعتبار تاريخ شمال إفريقيا عموما والجزائر بالخصوص تاريخ فتوحات واحتلالات تحملها قاطنوها الأوائل بصبر كبير ولذلك انحصر دورهم في التاريخ في المقاومة، وكان الإبقاء على اللغة والعرف والأشكال القديمة للتنظيم الاجتماعي أهم نجاح لتلك المقاومة، وما تجدر الإشارة إليه هو انه لا ينبغي وتبسيط التاريخ خاصة في حال المبالغة في إسقاط الحاضر في الماضي.

في الواقع يمكن أن نعكس قياسا آخر في أن شعبا يمتاز بالمرونة طبَعا للثقافات الأجنبية إلى درجة أن بعضه أصبح تدريجيا بونيا، رومانيا إغريقيا فعربيا، يمكنه أن يحتفظ بتقاليده ولغته وفنونه ، أي في كلمة واحدة يبقى هو هو أي أمازيغيا.

لا تشكل القرون الطويلة من التاريخ عصورا أمازيغية مجهولة فقط، فقد كان هناك دون ريب رجال ونساء متميزون طبعوا عصرهم بأعمال بارزة، ولكن التاريخ الذي كتبه الأجانب لا يحتفظ دائما بالذكرى التي هم أجدر بها وهذا هو الغرض الذي أنشئت من اجله دائرة المعارف البربريةEncyclopédie Berbère التي تنوي الكشف عن ذلك الزمن وإلقاء الضوء على تلك الشخصيات الأمازيغية المتميزة.[1] كما يمكن أن نضيف كذلك مدارس لها أهداف وسياسة مثل مدرسة شارت لعلم الوثائق Ecole des chartes التي تأسست عام 1821م، وهي متواجدة حاليا بنهج السوربون بباريس.

ما يلاحظ أن في العهد الاستعمار الفرنسي هو احتكار المستعمر للتدوين والتوثيق، فلا نكاد نجد أرشيفا جزائريا أو كتابات وتأليف، فضلا عن أبحاث ودراسات علمية موثقة تتناول هذه المرحلة الحساسة من تاريخنا الوطني. إذ نجد أجيالا من المؤرخين محترفين وهواة قاموا يفتشون في تاريخ الجزائر متعلقين بفكرة الجزائر الفرنسية،

[1] – العربي عقون ، **الأمازيغ عبر العصور، نظرة موجزة في الأصول والهوية**، التنوخي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، الرباط، 1910، ص 19.

والظاهر أن جميع تحليلاتهم توخّت هدفا واحداً تمثل في تبرير وجود النظام الاستعماري وعدم جدوى أي عمل لتغيير الأوضاع الحالية.*

يمتاز التأليف الاستعماري الفرنسي حول الجزائر بتوسيع مفهوم الوثيقة والمصدر، وقد شرع الباحثون الفرنسيون في الحفريات وسجلوا روايات شفوية وجمعوا الوثائق المكتوبة ، وعلى هذا الأساس أعطي للتاريخ اتجاه ومنطق، وأقحم فيه التحقيب الثلاثي المتداول في التواريخ الأوربية، كان يمارس نقدا هو في الحقيقة مجموع ملاحظات مترتبة عن تلك المبادئ ومطبقة بكيفية آلية على المعلومات التقليدية، وكان على الرغم من تفوقه النسبي على التأليف العربي سجين مفاهيم محدودة حول الوثيقة والحدث والزمان التاريخي.

كما أصدر ستيفان قزال سنة 1913م كتابا تحت عنوان "تاريخ شمال إفريقيا القديم"(L'Histoire ancienne de l'Afrique du nord) ذكر فيه أن:" إفريقيا الشمالية لا تشكل مجموعة منسجمة ولم يكن لها من الأيام وحدة سياسية، كما أن البربر- في رأيه- لم يفلحوا يوما في تكوين أمة"[1]. والخلاصة أن المؤرخين الاستعماريين استعملوا جميع المصادر النابعة من العلم أو من الخيال في سبيل الحصول على أدلة تبرر مصادراتهم الأيديولوجية المتمثلة في كون الجزائر بلدا تابعا لفرنسا

* - كان المستشرقون الأوائل الذين رافقوا الحملة الفرنسية على الجزائر أو واكبوا بدايات الاحتلال مستعربين في الغالب، وقد عنوا بتاريخ وثقافات المنطقة منهم هنري باسي (1892-1929م) Henri Basset ثم أندري باسي (1895- 1956م) وهما ولدا روني باسي (1855-1924م)، يضاف إليهما الأخوان مارسي، وليام (1872- 1956م) وجورج (1876- 1962م) وتبعهم آخرون.

[1] - ستيفان قزال ، **تاريخ شمال افريقيا القديم**، ج5، تر: محمد التازي سعود، مطبوعات اكاديمية المملكة المغربية، الرباط 2007، ص 70.

بالفطرة، فالتاريخ بالنسبة للاستعمار مرتبط بضمان السلطة والهيمنة على المجتمع الجزائري.

وهنا يؤسفنا القول أن الذاكرة الجزائرية المعاصرة في معظمها هي صناعة استعمارية لكونها مرتبطة بالتأريخ لمستعمرة الجزائر ضمن منظومة الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية، لكن مع ذلك لا يمكننا أن ننفي كونها تمثل الذاكرة الجزائرية لتلك المرحلة العصيبة من تاريخنا المعاصر، وكأن ما كتب هما استعراض لتاريخان مختلفان من حيث الانجازات والإبداع والتأثير والمكانة ضمن كرونولوجية المدرسة التاريخية الاستعمارية، والتي تسعى لأن تبرز لنا وجود أمة واحدة ، يمثلها الرجل الأوروبي بالخصوص[1]، وعليه فإن ربط حركية الإنسان اليومية واللاحقة، بتفاعلات القوانين التاريخية الموضوعية، وسنن التغيير الاجتماعي؛ يمكن بلا شك من استشعار دور الإنسان كفاعل يملك الإرادة والقدرة على تغيير واقعه نحو الأفضل، ومن ثم التحرر من منطق" العدمية والسكون" في الحركة، كما " الانهزامية" في القرارات والمواقف.

كما استقر واتفق فلاسفة التاريخ والحضارة جميعهم من عهد أرسطو مرورا بابن خلدون وكارل ماركس، شبنغلر وابن نبي، وتوينبي وغيرهم على أن: "إدراك سنن

[1] – مراد وزناجي ، **حديث صريح مع الأستاذ أبو القاسم سعد الله في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ**، الطبعة الأولى، منشورات الحبر، الجزائر، 2008، ص136.

الكون ووعي القوانين التي تمس حياة الإنسان، مرهون بالقراءة و التأمل في أحداث التاريخ." [*]

الأطروحة الاستعمارية في كتابة التاريخ الجزائر:

كانت القاعدة التي انطلق منها الفرنسيون في كتابة تاريخ الجزائر هي كونهم تغلبوا على الجزائريين بالقوة أو كونهم شعبا متحضرا حكموا شعبا متخلفا وكونهم مسيحيين قبضوا على زمام شعب مسلم، وتعتبر هذه القاعدة حتمية تاريخية عندهم متمثلة في رسالة الرجل الأبيض وبرزت دعاوي التفوق العرقي وظلت هذه القاعدة هي التي تحدد منهجهم في البحث الذي تطور مع الزمن كلما ازدادوا صلة بالجزائريين.[1]

بمجرّد ذكر عبارة المصادر الاستعمارية تأخذنا المخيّلة نحو تلك الحقبة الطويلة من تاريخ الجزائر المعاصرة والتي امتدّت 132 سنة من القهر والاستبداد الاستعماري، حيث سعت إلى محاولة النيل من وحدة المجتمع الجزائري وهويّته، لتسطير مستقبل مستعمرة فرنسية غربيّة الملامح.

لقد كانت الكتابات الاستعمارية عن تاريخنا القديم في غالبيتها تخدم هذه الغاية من خلال محاولة تشويه تاريخ الجزائر والنيل من أصالتها وانتمائها الحضاري من خلال محاولة عزلها عن المناطق الحضارية السائدة في الفترة القديمة ، وعن امتداداتها

[*] – ان نقطة الانطلاق التي ركز عليها هؤلاء تنطلق من استنكارهم ان تصبح دراسة التاريخ أكواما مترامية من المعارك الحربية والمعاهدات السياسية دون معنى مفهوم أو حكمة بادية، وأُريدَ من هذا تنقيح الدراسة التاريخية بما يمكن تسميته بالتاريخ النقدي وتعديل طبيعة الدراسة التاريخية من التاريخ السياسي والعسكري إلى فلسفة الحضارة.

[1] – سعد الله أبو القاسم: **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر**، ج1، بيروت ، دار الغرب الإسلامي، 1990 ، ط 3، ص 17.

وتفاعلاتها بالشعوب المجاورة لها خصوصا المجتمعات المشرقية ، ولقد انتهجت هذا المسلك عن وعي وبصيرة في إطار تحقيق المشروع الاستعماري في الجزائر القائم على فرض منطق الغالب على المغلوب ولو كان ذلك بتجاوز مرجعية الأمّة الجزائرية وذاكرتها الأصيلة.

وقد لعب قوتييه (E.F.Gautier) وقزال (S.Gsell) دورا رائدا في هذا الميدان، أحدهما بنظرياته المتعلقة بعدم تحول الطبيعة البربرية (L'immobilisme berbère)، والآخر بطروحاته الجغرافية والاجتماعية [1]، والتي كانت تعكس مدى ذاتية المؤرخ عندما يرتبط بمصالح وطنه " ذلك أن كتابات هذا العهد كانت تعمل على تبرير الاستعمار والتأريخ له، وتعمل في النهاية على نجاحه واستمراره"، وبالتالي استمرار نموذج المجتمع القائم في الجزائر كما أراده المعمرون.

ويذكر أنه انعقد بباريس عام 1930م المؤتمر الثاني للعلوم التاريخية، وكان المؤتمر الأول قد انعقد سنة 1927م ، وقد حضر هذا المؤتمر مؤرخون معروفون مثل ألازار (Alazar) وإسكر (Esquer) وليسبيس (Lespes) ومارسي (Marçais) وكلهم متخصصون في تاريخ الجزائر، اجتمعوا في خدمة إيديولوجية المستعمر حيث تحدثوا عن الجزائر وربطوها بفرنسا وقابلوا بين روما وفرنسا في شمال إفريقيا.

[1] – Gautier (E. F), **un siècle de colonisation études au microscope**, collection du centenaire de l'Algérie, librairie félix alcan. Paris, 1930, p 327.

كما أن هناك مسألة جد هامة لازالت مغيّبة في المصادر المكتوبة وتتمثل في حياة المجتمع الجزائري اليومية والعلاقات بين مختلف القبائل والمناطق ومختلف أوضاعهم ونظام هيكلته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والقضايا المتعلقة بالحياة الفكرية والثقافية، فما تركز عليه التقارير في الواقع هي سلوكيات وخصوصيات هذه القبائل لكي يتم استغلالها في إطار سياسة التوغل الاستعماري والإخضاع، كما أن المصادر المكتوبة غالبا ما تركّز على جهات دون غيرها، وعلى سبيل المثال؛ ما تحتويه المكتبة الوطنية الفرنسية من خلال موقعها الالكتروني غاليكا (Gallica Bnf) ، حيث يتضح لنا تركيز مؤرخين وعلماء الآثار الفرنسيين على مواضيع تمجد الاستعمار الروماني والفرنسي وتخدم مصالح المستعمر كتجسيد العنصرية والتفرقة، وهي ترتبط بالإستراتيجية الاستعمارية والهدف من ذلك هو إحداث نوع من الصراع العرقي في الجزائر بين الأمازيغ والعرب في الفترة الراهنة.

إن الكتابات الكولونيالية غالبا ما تركّز على المجالات التي تخدم المشروع الاستعماري بمختلف جوانبه، مع التركيز على طرف دون الآخر والمتمثّل في الكولون والتعمير، أما السكان الأصليين والذين يوصفون بالأهالي، فلا يتم دراستهم سوى في الجانب الذي يخدم الإستراتيجية الاستعمارية والذي يسمح بنجاح سياساته في البلاد، مع التركيز المؤرخين الفرنسيين سواء من كان اتجاهه استعماريا أو ليبراليا سوى على العنصر الجديد المتمثل في العنصر اللاّتيني الذي يمثله المعمّرون الأجانب في الجزائر، فلا

يحق لهؤلاء أن ينكروا وجود الأمّة الجزائرية وما بذلته بالخصوص في القرن 19 حفاظا على هويّتها.[1]

شن مفكرو المستعمر الفرنسي في الجزائر حملة واسعة النطاق لطمس معالم الدولة الجزائرية في جميع المجالات، وكان ذلك بهدف القضاء النهائي على المرجعية التاريخية والحضارية للجزائر بصفتها دولة وأمة. ولتحقيق هذه الغاية، أطلق العنان لمؤرخي الاحتلال وضباطه ليرسموا لوحة قاتمة عن حالة الجزائر منذ القدم بغية تبرير احتلالهم لها، لدرجة أنهم نزعوا عنها صفة الدولة على الرغم من أن دولتهم فرنسا (غاليا) في الفترة القديمة كانت اقل شئنا من المملكة النوميدية في الكثير من النواحي، ثم في الفترة الحديثة كانت تتبادل مع الجزائر الممثلين وتبرم معها المعاهدات وتعمل على كسب ودها وصداقتها بتقديم الهدايا والإتاوات. تلكم اللوحة القاتمة أصبحت المادة الخام التي ينهل منها غالبية المؤرخين والباحثين، عرباً وغيرهم، حينما يتناولون تاريخ ومؤسسات الدولة الجزائرية الأولى.

وضمن هذه المسألة يعقّب الدكتور مصطفى الأشرف بقوله:" إن بعض المفكرين الفرنسيين، وبعض المفكرين عندنا، ممّن يدّعي بأنّه ارتقى إلى مرتبة الإيديولوجيين كثيرا ما رأيناهم غافلين عن الحقائق اليومية بسبب نظرتهم السطحية واحتقارهم للشعب الجزائري، وكثيرا ما أهملوا الشهادات التي لا تتفق مع تصورهم لعظمة فرنسا أو لبطولة الشعب الجزائري، ولهذا فلم يكن أحد منهم يولي انتباهه لمصير

[1] – مصطفى الأشرف، **الجزائر الأمّة والمجتمع**، تر: حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983 ، ص12.

المجتمع الجزائري المهدّد بالفناء والزوال، وما قام به ذلك المجتمع من عمل شاق، وما بذله من جهود لتوحيد كلمته وللمحافظة على بقائه". [1]

يمكن للباحث أن يلاحظ أن المؤرخين ذوي النزعة الاستعمارية لم يبدو أي اعتراض مثلا على أعمال الإدارة الاستعمارية التي تمثلت في الاستيلاء على الأوقاف الإسلامية وتحويل المساجد إلى كنائس ولا على تهديم بعضها ولو كان هذا الاعتراض باسم المحافظة على الآثار، بل إننا نجد في كتاباتهم عبارة "الإسلام الجزائري" وهم يعنون بذلك الإسلام كما يمارسه الجزائريون الذين هم – في نظرهم – لم يعتنقوه عن وعي وقناعة وإنما هو عندهم نوع من العادات والتقاليد الموروثة. [2]

نقد التاريخ الإيديولوجي

كان لا بد علينا من بناء تاريخ معرفي ما بعد كولونيالي، وهذا يحتاج إلى ابتكار نوع جديد من التاريخ، تاريخ يضحي بفكرة المتصل الزمني لصالح تاريخ يجتهد في كشف القطائع والانفصالات،ويتعمق فيما وراء الطاغي، ويلتقط الهارب والخاطف والمنبثق فجأة، تاريخ يتجاوز النخبة ويهبط إلى الناس الفاعلين الحقيقيين، تاريخ يستبدل الحدث كنواة التاريخ ووحدته بالعلامة والعلاقة، تاريخ يسقط فكرة نقاء المعرفة ويلتقط تورطاتها وحروبها، ولذلك لا بد من التضحية بالتاريخ كمسار زمني من أجل الظفر بالتاريخ بوصفه حركة تصادمات وتبدل علاقات في حقل اجتماعي.

[1] – مصطفى الأشرف، **المرجع السابق** ، ص12.

[2] – Gautier (E. F). op cit, pp 147, 150, 342.

ولأن التاريخ صناعة إنسانية بامتياز تتفاعل في إنتاجه سياقات الموضوع والمكان والزمان، متخطية النظرة الماضوية الجامدة إلى ملامسة الحاضر، والذهاب بعيدا في التنبؤ بالمستقبل؛ طبعا ضمن إطار منظومة قوانين موضوعية وقيمية تمتزج بنية صناعة وأثرا، أو كما يذهب إليه قسطنطين رزيق: " فالإنسانُ الحي الفاعل صانعُ التاريخ، ليس مستقبليًّا مُطلقًا، سائحًا في الرُّؤَى والأحلام، ولا حاضريًّا مطلقًا غارقًا فيما حوله مِن مشكلات، ولا تاريخيًّا مطلقًا يحنُّ إلى الماضي، وينبغي أن يرجِعه كما كان، وإنَّما يعيش في توتُّر دائمٍ بين الحاضِر والماضي والمستَقبل، تتفاعل قُواها وعناصرها في ذاته، بإدراكٍ متَّزنٍ صحيح، وشعور دقيقٍ نافذ، فيكون من أثَر هذا التفاعل العملي تاريخيًّا مبدعًا."[1]

فالموضوع التاريخي يقع التعاطي معه من زواياه المتعددة، ومِن خلفياته الأيديولوجية المحركة؛ تتحَكم فيه آليات، مكونة ما يمكن أن نطلق عليه "الدورة الحلزونية" المتمثلة في طرح ومقاربة الأسئلة الثلاثة التي يجب استحضارها لدى الباحث التاريخي في تدوينه التاريخي؛ هي: ماذا حدث؟ لماذا حدث؟ وكيف حدث ؟

لقد نوه المؤرخ المغربي المعاصر محمد زنيبر بقوله: " إن النصوص التاريخيَّة لها ظاهر وباطن، وهذا شيء لا يعرفه إلاَّ مَن تَمرس بها ووقفَ عندها ومعها وقفات طويلة، فالظاهر هو تلك المعلومات التي يلتقطُها القارئ العجلان التقاطا يكاد يكون ميكانيكيا، وأما الباطن فهو ما تدفع إليه تلك المعلومات من استِنتاجات وعمليات

[1] – قسطنطين رزيق، **نحن والتاريخ**، دار الملايين، بيروت، (د.ت)، ص15.

استكشافية؛ أي من اقتناص المجهول منَ المعلوم، فإذا عرفنا كيف نستخرج بطريقة الاستنطاق المنهجي ما يكمن في النص من خبايا، نكون آنذاك قد نفذنا إلى باطنه."[1]

ومما لا جدل فيه أن المتتبع للكتابات التي اتخذت من تاريخ شمال إفريقيا القديم عامة أو الجزائر خاصة موضوعا لها يلاحظ أن نسبة مساهمات الباحثين الجزائريين في ارتفاع مستمر ومن حقنا أن نتساءل اليوم عما إذا كانت الصورة التي نقدمها عن أنفسنا هي اقرب إلى الموضوعية من تلك التي قدمها ولا تزال تقدمها الدراسات الغربية بغض النظر عن أعمال الترجمة والتقارير السابقة .

وإذا أردنا أن نسقط الرؤية التاريخية السالفة الذكر في قراءة تاريخنا القديم وتفسير أحداثه، فإننا نجد أنفسنا أمام هيمنة رؤية لمدرسة استعمارية أسس لها كتابا ومؤرخين كرسوا فكرة "المركزية الأوروبية" في صناعة التاريخ والحضارة، وصياغة الحاضر والمستقبل، كما حملوا "نظرة فوقية" تجاه الإنسان الأهلي الجزائري. وأصبحنا جميعا ضحايا المدرسة الاستعمارية، والمؤسف أننا لا نشعر بذلك وهذا أخطر ما تمر به النفس البشرية من سحق وإلغاء. من جانب آخر فقد وجدنا أنفسنا نصطدم مع كثير من المشاعر والعواطف الوطنية والتاريخية الجياشة –كرد فعل حيال النظرة السابقة– والتي قد تحول دون بناء نظرة علمية موضوعية لتاريخنا الوطني –كما هو شائع في معظم الكتابات والدراسات التاريخية التي أنجزت من قبل مؤرخين وكتابا وباحثين جزائريين خلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، وحتى بعد الاستقلال– على خلفية حملهم شعار" تصحيح التاريخ". تحركهم في ذلك المنهجية الذاتية؛ تحت تأثير الفعل

[1] – محمد زنيبر، **حفريَّات عن شخصية يعقوب المنصور**، مجلة كليَّة الآداب والعلوم الإنسانية، ع 5، 1982، ص 23.

الاستعماري الشنيع تارة، أو استرضاء السلطة القائمة أخرى، أو الإغراء وطلب المال والجاه؛ أو بدوافع شخصية كالتمجيد العائلي والقبلي، أو التشويه والانتقام غيرها، وهي ظاهرة أقل ما يقال عنها أنها غير صحية لا تشجع على بناء منهج علمي سليم يمكن أجيال الدارسين والباحثين الشباب من الاتكاء عليها لبناء أسس "مدرسة وطنية" للتفسير التاريخي قوامها الحقائق الموضوعية والمنهج العلمي وخدمة قيم المواطنة السليمة، إلى جانب المشترك الإنساني العام.

المنهجية المطلوبة لكتابة تاريخنا:

يجب أن نأخذ في عين الاعتبار أن تكون كتابتنا عن التاريخ الوطني والاستعماري بالخصوص كتابة تنطلق من الذات لا أن تكون ردود أفعال حماسية عما يقول الغير من حق أو باطل ، لكي لا ننجر وراء لعبة الغير الذي يريد قيادتنا لمعارك هامشية تنسينا دراسة تاريخنا بشكل معمّق وواف حسب المنهج التاريخي الصحيح، ومثلما يقول الدكتور سعد الله:" ربما يمكن وصف المرحلة التي نحن فيها بمرحلة ردود الفعل على المدرسة التاريخية الفرنسية الموجهة للجزائر، وردود الفعل لا تؤسس مدرسة تاريخية جزائرية، ولكي تظهر مدرسة تاريخية جزائرية يجب توفر عدة شروط، منها الباحث الكفء والمنهج العلمي والدخول إلى الوثيقة بحرية، والمناخ الحر الذي يتقبل النقد البناء بصدر رحب ؛ كما يضيف الدكتور سعد اللّه كلاما هاما وخطيرا وجب الاستماع له بتمعّن والوقوف عنده بعمق مفاده" أنه يجب أن نعرف بان بعض مؤرخينا المعاصرين هم خريجي المدرسة الفرنسية لأسباب تاريخية وتشيعوا بآراء الفرنسيين في تاريخ الجزائر وجغرافيتها، وبعضهم تخرج من المدرسة الفرنسية بعد الاستقلال من الجامعة الجزائرية التي بقيت تابعة لفرنسا بمنهجها وبعض أساتذتها ورسائلها، والصنف

الثالث هم الجيل الذي درس التاريخ برؤية مختلفة أساسها تاريخ الجزائر العربي الإسلامي[1]، فلا غرابة إذا حسب الدكتور سعد الله أن تشيع بيننا أفكار المدرسة التاريخية الفرنسية إلى الآن لأن نسلها لم ينقطع إلا إذا حل محله جيل جديد متخرج على منظومة تربوية جامعية تأخذ الهوية الوطنية في اعتبارها، فاخطر ما تأتي به المدرسة التاريخية الفرنسية هو أن أصحابها يكتبون عن " شعب آخر" بنظريات تجريبية لا يهمهم تأثيرها السياسي والاجتماعي، فلو كانوا يكتبون عن شعبهم لتغيرت نغمتهم وتحركت مشاعرهم حسب بوصلة معينة ، ولكنهم ماداموا يكتبون عن شعب آخر فلا تهمهم المذاهب ولا الطوائف ولا النبرات القبلية، بل يهمهم تضخيمها وتكثيفها إلى درجة الانفجار إذا استطاعوا.[2]

يجب أن نعترف أنه بفضل المدرسة التاريخية الاستعمارية والتي ننتقد منهجية وطريقة كتابتها عن تاريخنا، سمح لنا الاطلاع عن جزء هام من تلك المرحلة رغم ما حملته تلك الكتابات –خاصة الرسمية والموجّهة منها لخدمة المشروع الاستعماري في الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية والجزائر بالخصوص – من تشويه وتزييف للحقائق خاصة في إستراتيجية الاحتلال الفرنسي ومقاصده من السيطرة على الجزائر، وصولا لحديثها عن المجتمع الجزائري من حيث تاريخه وطبائعه ومواقفه من سلطات الاحتلال والاستيطان، حيث وصف المؤرخ أبو القاسم سعد الله الكتابات الكولونيالية عن تاريخ الجزائر: " أنها الغنيمة غير المرغوب فيها لأنها بصفة عامة غنيمة مسمومة ".

[1] – أبوا لقاسم سعد الله، **التاريخ في حياتنا**، محاضرة منشورة ألقيت في المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الابيار، الجزائر، 13 /04/ 2008 ، ص5

[2] – مراد وزناجي ، **المرجع السابق**، ص135.

مطلوب منا جميعا دارسين وباحثين ومؤرخين ومواطنين التفكير جديا وعلميا في بحث منهجية جديدة لكتابة تاريخنا الوطني خاصة وتاريخنا كأمة عامة، عبر السعي أولا إلى تصحيح النظرة الاستعمارية لتاريخنا في الفترة القديمة، الوسيطة ، الحديثة والمعاصرة، وذلك بوضع برنامج علمي- منهجي دقيق لتطهيره من الشوائب والأغاليط التي كرسها أصحاب المدرسة الفرنسية، ليعتمدوها في زعزعة اصولنا التاريخية أنسابنا وعلاقاتنا الاجتماعية، وشخصياتنا الوطنية المقاومة والثورية، فضلا عن تشويه الأحداث التاريخية الأساسية في تاريخ أمتنا. فقد ركزت -كما يعلم الكل- الكتابات الفرنسية حول تاريخنا على إهانة الأهالي ووصفته بالبدائية والبعد عن حياة المدينة والتحضر، كما وصفته بأنه قابل للغزو الأجنبي ودائم الثورة على السلطة ولا يخضع إلا للقوة والقهر؛ ولذلك لم يسهم – في نظرها – في البناء والتشييد ، ولم تظهر فيه طبقة برجوازية تتذوق الفن والأدب والفلسفة، وتناقش الأفكار. هذه هي نظريات "إميل غوتييه" و"ألفريد بيل" و"أرنست ميرسييه"... أصحاب المؤلفات المؤثرة التي تنطلق من التعامل مع الإنسان الأهلي على أنه يعيش في نوع من (التحجر) تاريخه القديم غير بارز وحياته المعاصرة تتميز بممارسة طقوس فلكلورية والشعوذة والخرافات وقراءة الأوراد، والرقص الهستيري أو الجذب على يد بعض أدعياء التصوف.[1]

إن هذا الكلام هو الذي يدفعنا للاعتراف بضرورة وحتمية التعامل مع المصدر الاستعماري والفرنسي بشكل عام إن أردنا أن نؤرّخ لهذه الفترة من تاريخ الجزائر القديم والمعاصر، مع استعمال كل وسائل وآليات الباحث التاريخي في التعامل مع هذه المادة التاريخية الهائلة، والتي تظل حسب اعتقادنا موجّهة في معظمها لخدمة

[1] – أبوا لقاسم سعد الله، **التاريخ في حياتنا**، المرجع السابق، ص5

المشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر، ولما أقول هذا الكلام ليس بدواعي التحامل عليها، فأنا أدرك أنه من الصعب على المؤرخ في تلك الفترة ، وخاصة خلال القرن 19 وقبل الحرب العالمية الأولى، ادّعاء الشجاعة العلمية لما يكون وسط العاصفة؛ غير أن ذلك لا يمنعنا من مسائلتهم عن احترامهم للحرفية العلمية الواجب إتباعها من طرف الباحث والمؤرخ، مع إدراكنا أنه من الصعب أن نكون موضوعيين بشكل مطلق، فالذاتية تظهر باستمرار، لتبعدنا عن الرؤية التاريخية الصادقة، إن هذا الكلام لا ينفي وجود باحثين ناضلوا لإظهار الحقيقة والموضوعية التاريخية من أمثال ستيفان قزال وشارل روبير أجرون، وشارل أندري جوليان، وأندري نوشي، وجاك بيرك خاصة في كتابه "مملكة البؤس"، وفيكتور هيجو رغم أن أدبياته ركّزت في الدفاع على قيم المجتمع الفرنسي أكثر منها حرصا على الجزائريين وغيرهم ، ولو كان ذلك على حساب طموحات أوطانهم الرّائفة، وتحمّلوا بمرارة الانتقادات التي كانت توجّه لهم، والتي تصنّفهم أحيانا في شبهة التآمر مع العدو أو التعاون معه.

من هنا وجب علينا إعداد مناهج علمية تاريخية وطنية لكتابة تاريخنا القديم تراعي جدلية الصراع القائم، أولا بين رواد المدرسة الاستعمارية من ناحية، وبين رواد وتلامذة المدرسة الوطنية لكتابة التاريخ. هذا من جهة، ومن جهة أخرى تلفت إلى الجدل القائم بين الداعين إلى كتابة التاريخ الوطني بروح الالتزام الوطني، وثوابت الهوية، وانتماء الأمة الحضاري، وبين أنصار فكرة التخلص من التاريخ، والذهاب باتجاه اللاتاريخ.

الخاتمة:

إن التجديد المعرفي والاجتماعي سيكون صعبًا من غير الاطلاع على الأطوار السابقة لعلومنا وأوضاعنا، إننا من خلال قراءتنا المتجددة لتاريخنا الوطني يمكن أن نتعرف على مكامن الخطأ والعقبات التي تواجهه، ونتلمس بالتالي بواعث الاجتهاد فيه، كما أن تنمية حاستي المقاربة والنقد، تكتسبنا حتما المزيد من المرونة الذهنية، و القدرة على رؤية الأشياء من زوايا مختلفة تمكننا من الانطلاق على أرض صلبة. وقد صدق من قال: "إذا أردت أن تعرف المستقبل فانظر إلى الماضي." فمعرفة الماضي بمنهجية علمية سليمة والتزام أخلاقي ووطني صادقين، أمكننا ذلك من اكتشاف السنن التي تجسد العلاقة بين ما فات وبين ما هو آت، ومن خلال هذا وذاك نكتشف آفاقًا جديدة للتطوير، ونفتح حقولاً جديدة للممارسة، وقد آن الأوان للعمل على استدراك النقص الملحوظ في التدوين التاريخي عامة وكتابة التاريخ الوطني خاصة، وعلى باحثينا ومؤرّخينا أن ينفذوا ببصيرتهم وإدراكهم واستقرائهم، متجاوزين القشور وظاهر الأحداث التي تغطي سطح الأحداث؛ ليكتشفوا بعلم ومنهج الفكر الكامن وراءها، ومن ثم العمل على توظيف "التاريخ" كعنصر وقيمة مضافة لتغيير نمط تفكيرنا، فضلا على نوعية الحياة التي لا تسر لا القريب ولا البعيد.